فتى يُخشى ويرتجى

يمدح الحسين بن إسحاق التنوخي:

[الطويل]

هُوَ الْبَيْنُ حَتَّى مَا تَأَنَّى ٱلْحَزَائِقُ
وَيَا قَلْبُ حَتَّى أَنْتَ مِمَّنْ أُفَارِقُ(١)
وَقَفْنَا وَمِمَّا زَادَ بِثًّا وُقُوفُنَا
فَرِيقَيْ هَوًى مِنَّا مَشُوقٌ وَشَائِقُ(٢)
وَقَدْ صَارَتِ الْأَجْفَانُ قَرْحَى مِنَ الْبُكَا
وَصَارَ بَهَاراً فِي ٱلْخُدُودِ الشَّقَائِقُ(٣)
عَلَى ذَا مَضَى النَّاسُ ٱجْتِمَاعٌ وَفُرْقَةٌ
وَمَيْتٌ وَمَوْلُودٌ وَقَالٍ وَوَامِقُ(٤)

= يتحدّى سائر المخلوقات من بشر وحتى من عوامل الطبيعة، وهو لم يكتفِ بذلك بل إنه يتحدّى ما هو غير مخلوق، فإذا بالموجود واللاموجود يتصاغران أمام همّته الجبارة، فتبدو تلك الظواهر دون شعرة في مفرقه.

(١) و (٢) البين: الفراق. تأنى: تتمهّل. الحزائق، الواحدة حزيقة: الجماعة. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. لقد حان الفراق؛ فجماعة الركب يتهيّأون للرحيل، وفيهم من يُحبّ الشاعر، لذا فالقلب سيصحب حبيبته معه، ويتركه يُعاني انفصاماً أليماً، فلا يُمكن أن يحيا الشاعر بلا قلبه، إنه وقف تحت ظل شجرة وينظر من بعيد والقلب يعصره الألم واللوعة تضاعف الأسى، والمشهد فريقان: عاشق شدّه الشوق إلى معشوقه، والمعشوق يزيد ألم عاشقه ممّا يبديه من عدم التأثر البادي على عاشقه.

(٣) قرحى: جرحى. البهار: ضرب من الزهر أصفر اللون. الشقائق، الواحدة: شقيقة: ضرب من الزهر أحمر، ويُسمّى شقائق النعمان. يصف الشاعر حالته؛ فالبكاء قرّح جفنيه، وخدّاه الحمراوان علتهما صفرة لاندهاشه ممَّا يرى وكأنه لا يُصدّق عينيه.

(٤) الوامق: العاشق. إنها الحياة منذ كان الإنسان الأول، فيجتمع الأحباب، ويفترق بعضهم، وموت وحياة تتجدّد بالميلاد، وهم بين مبغض ومحبّ، وهكذا تتوالى الأجيال والحزن يلفّ حياتهم.

تَـغَـيَّـرَ حَـالِـي وَالـلَّـيَـالِـي بِـحَـالِـهَـا
وَشِـبْـتُ وَمَـا شَـابَ الـزَّمَـانُ الْـغُـرَانِـقُ[١]
سَـلِ الْـبِـيـدَ : أَيْـنَ ٱلْـجِـنُّ مِـنَّـا بِـجَـوْزِهَـا
وَعَـنْ ذِي الـمَـهَـارِي : أَيْـنَ مِـنْـهَـا الـنَّـقَـانِـقُ[٢]
وَلَـيْـلٍ دَجُـوجِـيٍّ كَـأَنَّـا جَـلَـتْ لَـنَـا
مُـحَـيَّـاكَ فِـيـهِ فَـاهْـتَـدَيْـنَـا الـسَّـمَـالِـقُ[٣]
فَـمَـا زَالَ لَـوْلَا نُـورُ وَجْـهِـكَ جِـنْـحُـهُ
وَلَا جَـابَـهَـا الـرُّكْـبَـانُ لَـوْلَا الْأَيَـانِـقُ[٤]
وَهَـزٌّ أَطَـارَ الـنَّـوْمَ حَـتَّـى كَـأَنَّـنِـي
مِـنَ الـسُّـكْـرِ فِـي الْـغَـرْزَيْـنِ ثَـوْبٌ شُـبَـارِقُ[٥]

---

(١) الغرانق : الشاب الجميل الطلعة الأبيض ، إنها معركة الحياة ، فإذا بالشاعر يغزو الشيب رأسه وقد تغيّرت حاله والأيام تمرّ سراعاً ، والزمان لا زال في أول عهده فتيًّا شاباً يُغري بمسايرته ومهادنته .

(٢) البيد : الواحدة بيداء : المفازات . الجوز : الوسط . المهاري : النياق المنسوبة إلى قبيلة مهرة اليمنية . النقانق ، الواحد نقنق : ذكر النعام . يُخاطب صاحبه ، وهما يمتطيان نياقهما مسرعين ، ويطلب منه أن يسأل البيداء التي يقطعانها عن الجنّ الذين يسيحون في وسطها وكذلك ذكر النعام الظليم وهو ينطلق يعدو مسرعاً ، لقد فات الشاعر سكّان تلك المفازة قاصداً ممدوحه كعادته باحثاً عن رزقه في قصور ممدوحيه .

(٣) و (٤) دجوجي : شديد الظلمة . جلت : كشفت ، أضاءت . محيَّاك : وجهك . السمالق ، الواحدة سملق : الأرض البعيدة الطويلة . جنح الليل : جزء منه . جابها : قطعها . الأيانق : النياق . يصف الشاعر رحلته إلى ممدوحه في ليل حالك الظلمة ، ومن بين ظلمة دامسة يبدو نور وجه الممدوح يُمزّق ما بقي من الليل في متّسع من الأرض المتطاولة البعد ؛ إنه منارة مشعّة في حلك الليل ووحشة تلك المفازة ، فكان لا بدّ للتغلّب على قسوة تلك الظروف من نياق تُعين على قطع تلك البيداء .

(٥) ورد البيتان التاليان في : الوساطة بين المتنبي وخصومه : ١٥٢ . الغرز : ركاب الرحل من جلد . الشبارق : الممزّق . لم يعرف الشاعر للنوم طعماً ، فقد منعته شدّة حركة ناقته من النوم فبدا كأنه في حالة سكر جعلته يترنّح فوق ناقته لشدّة إسراعها ، وكأنه ثوب خلق ممزّق في الغرزين .

شَدَوْا بِابْنِ إِسْحاقَ ٱلْحُسَيْنِ فَصَافَحَتْ
ذَفَارِيَهَا كِيرَانُهَا وَالنَّمَارِقُ (١)
بِمَنْ تَقْشَعِرُّ ٱلْأَرْضُ خَوْفاً إِذَا مَشَى
عَلَيْهَا وَتَرْتَجُّ ٱلْجِبَالُ الشَّوَاهِقُ (٢)
فَتًى كَالسَّحَابِ ٱلْجُونِ يُخْشَى وَيُرْتَجَى
يُرَجَّى الْحَيَا مِنْهَا وَتُخْشَى الصَّوَاعِقُ (٣)
وَلٰكِنَّهَا تَمْضِي وَهٰذَا مُخَيِّمٌ
وَتَكْذِبُ أَحْيَاناً وَذَا الدَّهْرُ صَادِقُ (٤)
تَخَلَّى مِنَ الدُّنْيَا لِيُنْسَى فَمَا خَلَتْ
مَغَارِبُهَا مِنْ ذِكْرِهِ وَالْمَشَارِقُ (٥)

(١) شدّوا: غنوا. الذفاري: ما خلف الآذان. الكيران، الواحد كور: الرحال. النمارق، الواحدة نمرقة: الوسائد توضع تحت الركبان. كان للحداة دور في إسراع النياق، فقد غنّوا يمدحون الحسين بن إسحاق فسالت أصواتهم إلى مسامعها فنشطت ورفعت رؤوسها ممَّا جعل أقفاءها تصافح رحالها والوسائد التي عليها لروعة ما مُدح به ولجمال أصوات أولئك الحداة.

(٢) تقشعر: تنتفش الشعور التي في بدن الرجل إذا أصابه خوف أو موجة برد. ترتجّ: تهتزّ. الشواهق، الواحد شاهق: العالية، يصف الشاعر ممدوحه بأنه يُثير الرعب حتى في ما لا يُحسّ، فإذا بالأرض تضطرب وكأن زلزالاً حرّكها بعنف، حتى الجمال المرتفعة الشاهقة يتولّاها رعب فترتجّ لذلك.

(٣) و (٤) الجون: الأسود. الحيا: المطر. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه فتى اكتملت لديه عناصر الفتوة العربية، كرم الحسب، شجاعة وقوَّة، كرم وجود، علوّ همة، سيادة، إنه كالسحب تحمل الخير إلى بني البشر، وهو يحمل خيره إلى مواطنيه فيأملون منه كلّ خير، كما أن المطر قد يأتي بالضرر فكذلك يخشى من الممدوح حالات غضبه فإنها كالصواعق تضرب دون تمييز وبلا رحمة، ومع ذلك فإن تلك السحاب تمضي في حال سبيلها وينسى الناس ما جاءت به بينما الممدوح يبقى ظِلّه مخيّماً على حياة الناس، وما يُميّزه عن تلك السحب أنها قد لا تمطر الخير فتكذب وتخلف موعدها بينما يصدق الممدوح لرجولته، فإذا وعد صدق.

(٥) يصف الشاعر ممدوحه بالزهد، فقد تخلّى عن حُطام الدنيا وما فيها، فتركه للمتكالبين =

غَـذَا ٱلْـهِـنْـدُوَانِـيَّـاتِ بِـالْـهَـامِ وَالـطُّـلَـى
فَـهُـنَّ مَـدَارِيـهَـا وَهُـنَّ الـمُـخَـانِـقُ[١]
تَـشَـقَّـقُ مِـنْـهُـنَّ الْـجُـيُـوبُ إذا غَـزَا
وَتُـخْـضَـبُ مِـنْـهُـنَّ ٱلـلِّـحَـى وَالـمَـفَـارِقُ[٢]
يُـجَـنِّـبُـهَـا مَـنْ حَـتْـفُـهُ عَـنْـهُ غَـافِـلٌ
وَيَـصْـلَـى بِـهَـا مَـنْ نَـفْـسُـهُ مِـنْـهُ طَـالِـقُ[٣]
يُـحَـاجَـى بِـهِ مَـا نَـاطِـقٌ وَهْـوَ سَـاكِـتٌ
يُـرَى سَـاكِـتـاً وَالـسَّـيْـفُ عَـنْ فِـيـهِ نَـاطِـقُ[٤]
نَـكِـرْتُـكَ حَـتَّـى طَـالَ مِـنْـكَ تَـعَـجُّـبـي
وَلَا عَـجَـبٌ مِـنْ حُـسْـنِ مَـا الـلَّـهُ خَـالِـقُ[٥]
كَـأَنَّـكَ فـي الإِعْـطَـاءِ لِـلْـمَـالِ مُـبْـغِـضٌ
وَفـي كُـلِّ حَـرْبٍ لِـلْـمَـنِـيَّـةِ عَـاشِـقُ[٦]

= عليها، ومع ذلك فقد غرّب ذكره وشرّق في أركان الأرض لفعله الخيرات التي عمّت البشر.

(١) و (٢) الهندوانيات: السيوف المصنوعة في الهند. الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. الطلى: الأعناق. المداري، الواحدة مدرى: الأمشاط. الخانق، الواحدة مخنقة: القلائد. يصف الشاعر شدّة بطش ممدوحه بأعدائه، فسيوفه الهندية وسيلة قوّته، وقد عوّدها على الغذاء من الأعداء، فإذا بها كالأمشاط ترافق رؤوسهم أو المخانق إذا رافقت رقابهم، تسحقهم سحقاً وتمحقهم محقاً. ولهذا فإذا بالنادبات يندبن قتلاهن فيشققن جيوبهن إذا طلعت جيوشه في الآفاق، بينما يكون فرسان الأعداء طعماً لسيوفه التي تُخضّب لحاهم ومفارقهم بدمائهم.

(٣) و (٤) الحتف: الموت. يصلى: يُقاسي حرّها لشدّة نارها. وأعداؤه أمام أمرين؛ فالفائز منهم من يتجنّب غضبه أو يفرّ من مواجهته أو غفل عنه الموت فيحفظ نفسه ويسلم من سيفه، والخاسر من تجرّأ على عداوته فكان الموت من حظّه، وقد طلّق نفسه بإرادته، فاستحقّ ما سعى إليه برحيله. لذا فالممدوح يُحاجي بسيفه مع أنه لا ينطق ببنت شفة، إنها لغة السيف الذي ينطق بالموت، وهو الحقّ المبين عمَّا يجول في خاطره.

(٥) و (٦) يستغرب الشاعر ويطول تعجبه ممَّا عليه ممدوحه، ولكن التفكير هداه إلى أن =

أَلَا قَـلَّـمَـا تَـبْـقَـى عَـلَـى مَـا بَـدَا لَـهَـا،
وَحَـلَّ بِـهَـا مِـنْـكَ الْـقَـنَـا وَالـسَّـوَابِـقُ[١]
خَـفِ ٱللَّـهَ وَٱسْـتُـرْ ذَا ٱلْـجَـمَـالَ بِـبُـرْقُـعٍ
فَـإِنْ لُـحْـتَ ذَابَـتْ فِـي ٱلْـخُـدُورِ الْـعَـوَاتِـقُ[٢]
سَـيُـحْـيِـي بِـكَ الـسُّـمَّـارُ مَـا لَاحَ كَـوْكَـبٌ
وَيَـحْـدُو بِـكَ الـسُّـفَّـارُ مَـا ذَرَّ شَـارِقُ[٣]
فَـمَـا تَـرْزُقُ الأَقْـدَارُ مَـنْ أَنْـتَ حَـارِمٌ
وَلا تَـحْـرِمُ الأَقْـدَارُ مَـنْ أَنْـتَ رَازِقُ[٤]
وَلَا تَـفُـتُـقُ الأَيَّـامُ مَـا أَنْـتَ رَاتِـقُ
وَلَا تَـرْتُـقُ الأَيَّـامُ مَـا أَنْـتَ فَـاتِـقُ[٥]

= اللَّه تعالى يخلق ما يشاء ومن يشاء كما يريد، ولهذا فقد زال استغراب الشاعر ممّا شاهده في ممدوحه، فقد عرف أن كرمه نابع من كراهيته لجمع المال واختزانه، وأنه يعشق القتل في المعارك فيبطش بأعدائه ليُخلّص الأرض من الظالمين والمجرمين.

(١) القنا: الرماح. السوابق: الخيل. ولكثرة حروب الممدوح، فقد أفنى من أدواتها الرماح والخيول بكثرة، فالرماح تتكسّر في أجساد الأعداء، والخيول تُلاقي حتفها لكثرة استعمالها وما ينتج عن ذلك من إصابات تُودي بها إلى الهلكة.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٠. يروى «حاضت» بدلاً من «ذابت». العواتق، الواحدة عاتق: الشابة من النسوة. الخدور، الواحد خدر: المخدع. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه جميل جدًّا، ولذا يطلب منه أن يخاف اللَّه تعالى ويستر جماله ببرقع كي لا تراه العواتق من النساء فيعشقنه فيؤدي ذلك إلى موتهن حسرة إن لم يحصلن عليه.

(٣) السمَّار، الواحد سامر: الساهرون في الليل، السفار، الواحد سفر: الملازمون للأسفار. ذرّ: طلع. الشارق ليلاً: الكوكب. ولبعد صيت الممدوح، فالسمَّار يحيون ليلهم بذكر مآثره والإشادة بفضائله، والسفر يحدون نياقهم في ليالي أسفارهم بمدحه ونشر محاسنه.

(٤) و (٥) فتق: مزّق لحمة الثوب. رتق: أصلح وأعاد لحمة الثوب. إنها مباراة مع الأقدار، الرابح فيها الممدوح، إنه يُعاند الأقدار، فالأقدار لا تقدر على إرزاق من حرمه الممدوح، وفي المقابل فإنها لا تحرم من رزقه الممدوح، فلو أرادت الأيام تمزيق عرى من أصلحه الممدوح كما أنها لا تقدر على جمع وإصلاح مما فرّقه الممدوح من لحمة بين المتشابهات من الأشياء.

لَكَ ٱلْخَيْرُ غَيْرِي رَامَ مِنْ غَيْرِكَ الْغِنَى
وَغَيْرِي بِغَيْرِ اللَّاذِقِيَّةِ لَاحِقُ[١]
هيَ الْغَرَضُ الأَقْصَى وَرُؤْيَتُكَ الْمُنَى
وَمَنْزِلُكَ الدُّنْيَا وأَنْتَ ٱلْخَلَائِقُ[٢]

أنفس ما للفتى لبه

وعرض عليه بدر بن عمار الصحبة للشرب في غد فقال ارتجالاً:

[المتقارب]

وَجَدْتُ الْمُدَامَةَ غَلَّابَةً
تُهَيِّجُ لِلْقَلْبِ أَشْوَاقُهُ[٣]
تُسِيءُ مِنَ الْمَرْءِ تَأْدِيبَهُ
وَلَكِنْ تُحَسِّنُ أَخْلَاقُهُ[٤]
وَأَنْفَسُ مَا لِلْفَتَى لُبُّهُ
وَذُو اللُّبِّ يَكْرَهُ إِنْفَاقُهُ[٥]
وَقَدْ مُتُّ أَمْسِ بِهَا مَوْتَةً
وَلَا يَشْتَهِي الْمَوتَ مَنْ ذَاقَهُ[٦]

---

(١) و (٢) ورد البيت الأول في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٣. رام: قصد. يدعو الشاعر للممدوح بدوام الغنى والسعادة، وهو يُنوّه بحبّه لممدوحه فغيره يقصد من الممدوحين غيره ويُفضّله بينما يفضل الشاعر ممدوحه ولهذا فقد لحق اللاذقية بلد الممدوح رغبة منه خلاف غيره من الشعراء؛ إنها غايته البعيدة حيث ينعم بمشاهدة ممدوحه، وحيث تتقلّص الدنيا في تلك المدينة لوجود من يتمثل فيه وبه الوجود البشري.

(٣) و (٤) وردت القصيدة في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٢. المدامة: من أسماء الخمرة. غلابة: تغلب العقل. يرى الشاعر أن الخمرة تسيطر على العقول فتشلّها عن التفكير، وتثير في القلب نوازعه فيتذكر حبّه وتثير لواعجه، وتخرج المرء عن أدبه فيأتي بفاحش الكلام ويتبذّل في سلوكه، ولكنها في نفس الوقت تجعله كريماً يبعثر ماله كيفما اتّفق بلا وعي منه.

(٥) و (٦) اللبّ: العقل. إنفاقه: ضياعه. يرى الشاعر أن من صفات الفتى الكامل الفتوّة =